Archive of SID

مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١٥، العدد ٤، شتاء ١٤٤١هـ
صفحة ٤٩٧ – ٥١٩ (مقالة محكمة)

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
https://jal-lq.ut.ac.ir/

تجلّيات الكرونوتوب (الزمكانية) في رواية "الثلج يأتي من النافذة" لحنّا مينة

سجاد اسماعيلي *

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الإمام الخميني الدولية، قزوين، إيران

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٩/٢/٥ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٩/٦/١٦)

الملخّص

يعدّ مصطلح الكرنوتوب الذي أورده ميخائيل باختين في الأدب، من المصطلحات التي نجد لها مجالا للتطبيق في المقاربة النقدية للرواية كنص أدبي. إنّ رواية "الثلج يأتي من النافذة" للروائي السوري حنا مينة تبيّن الحالة السياسية المتوتّرة التي عاشها المثقفون والأدباء السوريون في صورة روائية فنية يلعب فيها الزمن والمكان دورا رئيسا ويلقيان بظلالهما الفنية والجمالية على بقية المكونات والمحركات السردية الأخرى؛ فلذلك تفرض دراسة الكرونوتوب وجودها في هذه الرواية. من هذا المنطلق تنوي هذه المقالة خلال المنهج البنيوي على كشف الجوانب المتعلقة بالبنية الكرونوتوبية وإبراز أهمّ خصائصها المتجلية في رواية "الثلج يأتي من النافذة". وتوصّلت الدراسة إلى نتائج تفيد بأنّ ملامح الكرونوتوب أو الزمكانية تتجلّى في المكان المركزي والأمكنة الهامشية للرواية، وفي عنوانها ومقدّمتها، وشخصياتها، وأوصافها أيضا.

الكلمات الرئيسة

حنا مينة، الزمكانية، الثلج يأتي من النافذة.

* الكاتب المسؤول
Email: esmaili@HUM.ikiu.ac.ir

www.SID.ir

Archive of SID

مقدمة

إنّ عنصري الزمن والمكان يلعبان دورا واضحا في تشكيل البنية السردية لكلّ رواية، وتفرض معالجة أحدهما ضرورة معالجة الآخر. فمن هنا ظهر مصطلح الكرونوتوب أو الزمكانية – وهي المركبة من الزمن والمكان– للإشارة إلى العلاقات والتلاحمات المتواشجة التي تكون بين هذين العنصرين، إذ إنّ الزمن يعرض متناسبا ومتناغما مع طبيعة المكان، ويتلوّن المكان بتلوّن الزمن ومتغيّرا بتغيّره.

تحظى روايات حنا مينة منها رواية "الثلج يأتي من النافذة" نصيبا كبيرا من المضامين السياسية والثورية مثل الدعوة للنضال الوطني والاجتماعي والدعوة لحرية الرأي والسياسة (انظر: موسى، ٢٠٠٦: ٣٤) . إنّه يعالج في غالبية أعماله الروائية موضوع النضال الوطني ضد الفرنسيين، وحتى في رواياته التي عالجت مرحلة ما بعد الاستقلال، كان يعرّج من خلال ذكريات أبطاله على مسألة النضال الوطني. وقد علّق أوسمة الكفاح ضد المستعمرين الرئسيين على صدور معظم شخوص رواياته، وفي حين كان اهتمامه محدودا بقضية التغيير الاجتماعي التي برزت كمسألة أساسية بعد التحرّر من الانتداب الفرنسي (كاسوحة، ١٩٩١: ١١-١٢)، فيختار أبطال رواياته طريق المواجهة والتصدي الذي لا يخلو من تضحيات جسيمة ويتبلور من خلال ذلك كله الوعي الثوري الذي يعد سلاحا يحققون من خلاله وضعا إنسانيا أفضل (الماضي، ١٩٨٩: ١٤٣).

رواية "الثلج يأتي من النافذة" لحنا مينة هي من الروايات التي تتمتع بالنزعة الواقعية، فتكون الشخصيات متميزة بأفكارهم وأعمالهم وإنّ لهم ماضيا وتاريخا ويمكن تعريفهم من خلال أنشطتهم اليومية (مرادي وخوش قامت، ١٣٩١: ١٢٩). ومن حيث البنية اللغوية تتسم الرواية باتساق وتلاحم عنصري الزمن والمكان، بحيث لا يمكن فصل الزمن عن المكان ويؤثران كل منهما في بقية أجزاء الرواية مثل الشخصيات وخاصة بطل الرواية. فترشدنا هذه العلاقة الزمنية–المكانية إلى أن ندرس تجليات الكرونوتوب أو الزمكانية في الرواية من منظار آراء باختين.

إذن دراستنا هذه تطمح إلى تسليط الضوء على مفهوم الكرونوتوب وكيفية تمظهره في رواية "الثلج يأتي من النافذة" لحنا مينة. ومن الأسباب التي أثارت فينا الرغبة إلى دراسة

www.SID.ir

Archive of SID

الفنّ الروائي السوري عامة ولرواية "الثلج يأتي من النافذة" خاصة، كان في البدء مجرّد قناعة ذاتية ثبتها الافتتان المتواصل بالرواية كونها تنقل لنا الواقع الذي كان يعيشه الكتاب السوريين آنذاك، فتحوّل هذا الاعجاب إلى قناعة فكرية وذلك بما تزخر به الرواية من أزمنة وأمكنة تلعب دورا محوريا في تطوّر الأحداث والشخصيات الروائية، وكذلك الأوصاف المرتبطة بالزمن والمكان تلهم مضمون الاغتراب الزمكاني.

أسئلة الدراسة:

من خلال عرض ما تقدّم نحاول الإجابة عن السؤال الرئيس وهو: ما هي تجليّات الكرونوتوب (الزمكانية) في رواية "الثلج يأتي من النافذة" لحنا مينة؟ يتفرّع عن هذا السؤال، الأسئلة التالية:

١. ما علاقة الكرونوتوب بالمكان المركزي والأمكنة الثانوية في الرواية؟

٢. ما علاقة الكرونوتوب بعنوان الرواية ومقدمتها؟

٣. ما علاقة الكرونوتوب بالشخصيات المثقفة في الرواية؟

٤. ما علاقة الكرونوتوب بالأوصاف الواردة في الرواية؟

فرضيات الدراسة:

ذيّلنا الأسئلة السابقة بفرضيات هي:

١ . يتواشج الزمن والمكان في رواية "الثلج يأتي من النافذة"، إذ تتوالى الأمكنة بما فيها الأصلية والثانوية حسب الأحداث الزمنية التي عاشها بطل الرواية.

٢. يحمل عنوان الرواية دلالة زمكانية متقابلة تظهر في كلمتي "الثلج" و"النافذة". والمقدمة الحوارية للرواية تشير إلى الزمن والمكان اللذَين عاش فيهما بطل الرواية عيشا غير لائق.

٣. توجد علاقة متواشجة بين الشخصيات المثقفة وتتجلى هذه العلاقة في زمكان جديد تمضي فيه بعض الشخصيات حياتها اليومية هربا من الزمكان الماضي.

٤. تعرض الرواية أوصافًا مكانية جميلة تمثّل في إيقاف الزمن وتقليل تحسّرات بطل الرواية عبر تبيين التفاصيل المختلفة لبعض الأمكنة.

www.SID.ir

Archive of SID

الدراسات السابقة:

تعالج دراسات عديدة العناصر الروائية بما فيها الزمن والشخصيات والحبكة، في حين إنّ الدراسات المعنية بالزمكانية في مصطلحها الخاص قليلة ونذكر بعضها للإفادة: دراسة «البنية الزمكانية في رواية الرّماد الذي غسل الماء لعز الدين جلاوجي»، التي درس الباحث فيها مفهوم الزمن الروائي في تلك الراوية على أساس ما جاء به راجر جينت حول الزمن الروائي (عبدالعالي، ٢٠١٢م). ودراسة "البنية الزمكانية في رواية (ساق البامبو) مقاربة بنيوية" توصلت إلى أنّ الزمن والمكان بنية ثنائية متكاملة، ورؤية ذاتية إنسانية واقعية، وانتماء وعدم انتماء، وخفاء وجلاء، وحرية وجبرية، وحضور وغياب، ومن خلال هذه الثنائيات التي يقوم عليها المنهج البنيوي قد تجلت روح السارد المفعم بروح الزمن بكل تجلياته حاملا قضية اجتماعية انسانية إنها قضية انفصام الهوية (عبدالعليم محمود، ٢٠١٤: ٩٢-١٧٤). وفي مقالة "دراسة الكرونوتوب التحليلية من منظار ميخائيل باختين في رواية "دو دنيا" و"ذاكرة الجسد" أشارت النتائج إلى أن البنية الزمكانية في رواية ذاكرة الجسد للكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي تتمتع بإطار واسع بالنسبة لرواية "دو دنيا" للكاتبة الإيرانية كُلي ترفي، لأنّ البطل فيها قد اعتمد على قوة خياله وعواطفه أكثر مما نتوقعه (حاجي قاسمي وصاعدي، ١٣٩٦: ٨١-١٠١). وفي مقالة "الزمكانية في رواية أعاصير في بلاد الشام" أوحت النتائج إلى أنّ الكاتبة ناديا خوست نجحت في تصوير الزمن والمكان الروائيين بلغة جميلة وطريقة تيار الوعي وانثيال الأفكار والحوار الداخلي في معمار روايتها الطويلة هذه (شوندي ومحمودي اصفهاني، ١٤٣٢: ٤٩-٦٥).

وعلاوة على هذه الدراسات، اهتمت بعض الدراسات العلمية بمعالجة الروائي السوري "حنا مينة" ورواياته المختلفة، نذكر بعضها المرتبط برواية "الثلج يأتي من النافذة". عالج الباحثون في مقالة معنونة بـ"جمالية الوصف في رواية الثلج يأتي من النافذة لحنا مينة" عنصر الوصف في الرواية وأثبتوا بأن جميع أوصاف الرواية تتناسق مع الحالة المتوترة التي عاشها بطل الرواية (متقي زاده والآخرون، ٢٠١٣: ٢-٢٧). وفي مقالة "دراسة تحليلية لرواية الثلج يأتي من النافذة لحنا مينة" قام الباحثان بتبيين رؤية حنا مينة الواقعية وسماتها في رواية الثلج يأتي من النافذة من جهة والكشف عن دلالة الأشياء الجامدة من جهة أخرى (مرادي وخوش قامت، ١٣٩١: ١١٥-١٣١). ولكن ما يثبت حداثة دراستنا فهو توظيف مصطلح الكرونوتوب أو الزمكانية في رواية «الثلج يأتي من النافذة» لحنا مينة.

www.SID.ir

Archive of SID

منهج الدراسة وموادّها:

تنتهج الدراسة المنهج البنيوي الذي ينظر إلى النصوص الأدبية عامة والرواية خاصة على أنها تراكيب لغوية، فيكشف بنياتها الرئيسة والثانوية ونظامها دون أن يفسّر علاقتها بالمؤلف أو بالحالة الاجتماعية. فالأدب في رأي البنيويين هو المعبر عن نفسه والنص هو الذي يكشف عن بنيته، ومن خلال المقاربة البنيوية يكون التوصّل إلى أسرار النص الداخلية في بنياته وعلاقات أنساقه (عبدالعليم محمود، ٢٠١٤: ٩٥). إذن هذا المنهج يسمح لنا بقراءة الرواية في ضوء البنية الكرونوتوبية كقراءة جديدة. يتكوّن أهمّ مواد الدراسة من رواية "الثلج يأتي من النافذة" وجملة من المصادر المرتبطة بالكرونوتوب (الزمكانية) التي تشكّلت زاد الدراسة.

الكرونوتوب (الزمكانية) بين اللغة والمصطلح

إنّ مصطلح الزمكانية وإن كان مركبا مزجيا منحوتا من مصطلحي الزمان والمكان (مرتاض، ١٩٩٥: ٢٢٧)؛ فهو مصطلح غربي في الأساس ونقصد بذلك اللفظ اللاتيني و chronotope هو «مجاورة لجذرين لغويين لاتينيين هما: chronos الذي يعنى الزمن، و topos ومعناه المكان، وإدغامهما يعطي chronotope» (الأحمر، لا تا: ١٨).

أما في المصطلح السردي لجرالد برانس[1] فيأتي تعريف مصطلح "الكرونوتوب" على أنه «السمة الطبيعية والعلاقة بين المجموعتين الزمنية والمكانية، والمصطلح يشير إلى الاعتماد المتبادل الكامل بين الزمان والمكان»، فهو «يعني حرفيا الزمان- المكان» (برنس، ٢٠٠٣: ١٥). لقد شغل هذا المصطلح أذهان الفلاسفة بالتفكير في ماهية الزمن والمكان، حيث إنهم ربطوهما بعنصر آخر وهو الحركة، إذ عقدوا صلة وثيقة بين الزمان والمكان والحركة. وربما ذلك ما عبّر عنه أرسطو في حديثه عن الزمن بأنه «عدد الحركة» و«أن الشيء في الزمان يعني أن يكون مقيسا وذلك لأن الأشياء توجد مطوقة بمكانها» (محمد موسى حمودة، ٢٠٠٦: ١٩).

يعتبر مصطلح الزمكانية أو الكرونوتوب الأدبي مصطلحا باختينيا بالأساس، «إذا نحته باختين عن وعي علمي ودافع نقدي يبحث عن دفع الخلط وتجاوز تقنيات الفكر التقليدي الذي كان يأمن بمطلقية الزمن وانفصاله عن الفضاء أو المكان» (حليفي، ١٩٩٧: ١٥٧). فتعريف باختين عن هذا المصطلح هو: «ومن وجهتنا سوف نطلق على العلاقة المتبادلة

1. Gerald Prince

www.SID.ir

Archive of SID

الجوهرية بين الزمان والمكان المستوعبة في الأدب استيعابا فنيّا باسم chronotop»، ويصبح بذلك مصطلح الكرونوتوب مستوعبا لجميع خصائص الزمن والمكان داخل كلّ جنس أدبي وذلك عبر انصهار علاقاتهما (باختين، ١٩٩٠: ٥).

يبيّن باختين ماهية الزمكانية في المجالات الأدبيةالفنية ويقول: «يحدد الزمكان الوحدة الفنية للمؤلف الأدبي في علاقته بالواقع الفعلي. ولهذا السبب ينطوي الزمكان في المؤلف دائما على لحظة تقييمية لا يمكن فصلها عن الزمكان الفني الكلي إلا في التحليل المجرد. ذلك أن كلّ التحديات الزمانية المكانية في الفن والأدب لا ينفصل أحدها عن الآخر، وهي دائما ذات صبغة انفعالية تقييمية. يستطيع التفكير المجرد طبعا أن يتصور الزمان والمكان كلا على حدة ويغفل لحظتهما الانفعالية التقييمية. لكن التأمل الفني الحيّ (وهو أيضا نابض بالفكر، إنما الفكر غير المجرد) لا ينفصل شيئا، ولا يغفل شيئا. إنه يلّم بالزمكان في كل تماميته وامتلائه. إن الفن والأدب مخترقان بقيم زمكانية من مختلف الدرجات والأحجام. وكل موضوع جزئي وكل لحظة مجتزئة من المؤلف الفني هي قيمة من هذه القيم» (حاجي قاسمي وصاعدي، ١٣٩٦: ٨٧؛ نقلا عن باختين، ١٩٩٠: ٢٣٠).

لقد ذكر باختين للزمكانية أنواعا ثلاثة من الزمن بناء على الروايات اليونانية وهي: زمن المغامرة، امتزاج زمن المغامرة والزمن اليومي، زمن السيرة الذاتية.

- زمن المغامرة: هو زمن يثير الشخصيات الروائية والقارئين لكي يبحثوا عما سيأتي فيما بعد.

- امتزاج المغامرة والزمن اليومي: لهذا الزمن ميزتان: أ) تقديم ما يجري في الحياة اليومية من الحوادث. ب) مقارنة الحياة اليومية بما يبحث عنه الشخص في عالمه التخيلي. في هذا النوع من الزمن لا يمكن معرفة ماهية الشخصية الرئيسة إلا خارج عالمها الواقعي. أي نعرفها خلال تخييلاتها لا أعمالها اليومية.

- زمن السيرة الذاتية: نجد حياة الشخصية ذات مراحل متعددة بشكل دقيق في هذا الضرب الزمني (حاجي قاسمي وصاعدي، ١٣٩٦: ٨٧؛ نقلا عن بورآذر، ١٣٩١: ١٣٩-٣٢٣).

موجز عن المضمون السردي لرواية "الثلج يأتي من النافذة"

تدور أحداث الرواية حول عامين من عمر بطل الرواية "فيّاض" المناضل السياسي السوري الذي التجاء إلى خارج بلده وذاق واقعا اجتماعيا غير عادل. إنّ البطل بوصفه كاتباً يساريا

www.SID.ir

Archive of SID

معارضا لوحق في دمشق فاضطر ترك دمشق والالتجاء إلى لبنان وفي ظنّه أنه سيستمتع فيها بالتحالف مع الحرية. يقيم فياض في بيروت بين أفراد عائلة زميله اللبناني "خليل غزالة" الذي كان مثله مناضلا سياسياً، ولكن بعد مضي أيام تتأزّم أحوال البطل في ذاك البيت ويدرك أنّ الغربة أقسى من السجن وأقسى منهما البقاء في بيت مكشوف مثل هذا البيت. يجرّب فيّاض تجاربا جديدة تصنع منه مناضلاً خاضعا للواقع والممارسة، حيث إنه يُجبر نفسَه على تعاطي عمل يدوي في مطعم، اكتشافا عن الوجه الآخر للحياة وحقيقة العالم الصغير والقاسي. وفي ذاك الحين يتعايش مع أحداث ثلاثة هي: حكاية المقامر وحكاية الرجل الذي انتحر بسبب عشيقة، وقصة صاحب المطعم الذي أجبر على غلق محله ليصبح أجيرا في مطعم السيدة. بعد مضي مدة لم يتمكن فياض من أن يصمد أمام هذه التجارب، فيعود إلى بيت "خليل" لمتابعة أعماله الكتابية، ولكنه إثر الرقابات التي وجدها في بيت خليل، ينتقل إلى بيت صديقه الآخر "جوزيف بوعبدة" وهو مناضل مولع بالأدب. وإن ينعم فياض بمستوى لين من المعيشة ويهيئ له فرص الكتابة في بيت جوزيف ولكن سرعان ما يجد نفسه في ظروف مكروهة، فيغيّر حياته بواسطة العمل، ويعمل كعامل في حظيرة بنّاء مختفيا تحت اسم "سليمان". يترك هذا العمل ويشتغل في مصنع مسامير صغير. فهناك أيضا تتعقّد ظروفه رغم طرافة صاحب المصنع وفلسفته الاجتماعية الخاصة ويضطر إلى الرحيل إلى مقرّه بيت جوزيف بعد أن ثبت له الملاحقة. إذن أقضى فياض عاما كاملا خارج الحدود السورية تحت الرقابة والملاحقة الشديدة، فهذه الفترة الزمنية التي كانت مليئة بالحوادث المؤلمة غطّت معظم صفحات الرواية. وفي القسم الأخير من الرواية يتم العثور على البطل حينما كان مختبئا صحبةَ آلة طباعة استعملها لتوزيع المناشير الثورية ويلقي القبض عليه. وبعد أن يطلق سراحه يلتجأ في الفصل الشتاء إلى قرية نائية في جبل لبنان وكأنه فرغ من وضع قصته الطويلة القاسية. وأخيرا ينوي فياض بعد كل هذا الاغتراب أن يعود إلى وطنه ويقسم أن لا يتركه أبدا: «أبدا لن أهرب بعد الآن!» (مينة، ١٩٧٧: ٣٧٢).

تجليات الكرونوتوب في رواية "الثلج يأتي من النافذة"

من خلال التمعن في رواية "الثلج يأتي من النافذة" نجد أن المكان يلعب دورا مهما في بناء الرواية، إذ تتكون من مكان رئيسي وأخرى أمكنة ثانوية تغلب عليها الأحداث الزمنية وتثير في الشخصيات الحركيةَ. فهذه الأمكنة حسب الأحداث الزمنية التي حدثت لبطل الرواية

www.SID.ir

Archive of SID

هي: "بيروت"، و"بيت خليل"، و"المطعم"، و"بيت جوزيف"، و"معمل المسامير". ففي التالي نتطرق إلى تجليات الكرونوتوب في الأمكنة الواردة في الرواية.

كرنوتوب المكان المركزي (بيروت):

يجسد المكان معنى الكرونوتوب تجسيدا يؤكد عرى الإتصال بين ثنائية المكان والزمان. إن المكان المركزي في رواية "الثلج يأتي من النافذة" هو فضاء واقعي تدور في فلكه الأحداث والزمن وتتحرك خلاله الشخصيات. مدينة "بيروت" بكل تفاصيل ذكرها بطل الرواية تعتبر مكانا مركزيا لعب دورا في مصيرة البطل الروائي. يصف الراوي مظاهر بيروت المختلفة كالشوارع والساحات ومبانيها الشاهقة من لسان بطل الراوية مشيرا إلى حالة الاغتراب المكاني الذي يواجهه في بيروت. النطاق الزمني لهذا المكان يشمل الأيام التي التجأ البطل إلى بيروت ويطول حتى خروجه منها. والزمن يمنح هذا المكانَ أبعادا أخرى؛ إذ تبدو مدينة بيروت التي تجري فيها أحداث الرواية خاضعة لهذا المنطق الزمكاني.

تظهر ملامح بيروت في الصورتين الزمكانيتين، الأولى هي صورة تحيل على زمن الصفاء لدى بطل الرواية، والثانية هي الواقع الزمني الموحش الذي أصيب به البطل. أما عن الصورة الأولى فإنّ السارد يعرضها في بعض الفقرات التي يصف مظاهر مدينة بيروت: «وكانت الساحة كقرية نمل بشري، والضجيج من حوله على أشده، والأزياء تتكاثر وتتباين.. الطربوش والقبعة والملاية واللف والديكولتي. فقال في نفسه: باريس لا تسبق بيروتَ في الموضة...» (مينة، ١٩٧٧: ٥٢) . هذه المقارنة بين باريس وبيروت تؤكد على أن المكان لم يكن معاديا له في بداية الأمر، بل كان بشكل يأمل البطل متحسرا لو كان حرّا ليستمتع بهذا المعرض الجميل في بيروت: «تمنى لو كان حرا لينحدر إلى ساحة البرج ويتوقف أمام الواجهات...» (مينة، ١٩٧٧: ٥٢). الزمن الكرونوتوبي هنا يكون من نوع امتزاج زمن المغامرة والزمن اليومي، إذ إن ابتعاد البطل عن الوطن إضافة إلى المراقبة الشديدة في سوريا يجعله مبتهجا بجماليات بيروت أكثر فأكثر.

وفي مقطع آخر من الرواية نرى السارد يصف بيروتَ من منظار "فياض" الذي أنهى عمله في اليوم الأول عند البنّاء وخرج ليتكسع في مدينة بيروت: «أبنية شاهقة، ترتفع من الهضبة إلى البحر، أبنية ذات طوابق، وأدراج، ونوافذ ملونة، وسكان لا يدري من هم، ولكنّه يعرف إنهم موجون... وأبنية كأبراج بابل الأبنية، تلامس السماءُ الأبنية، وظهور مقوسة،

www.SID.ir

Archive of SID

تدبّ على الأرض وفي الخنادق وعلى السلالم صاعدة هابطة» (مينة، ١٩٧٧: ٢٠٦-٢٠٧). إنّ الواقع الزمني المكروه الذي كان يعيش فيه "فياض" في الماضي، والواقع الزمني الراهن أدّى إلى أن يصف مظاهر بيروت الجميلة وفعلاً يُهدّئ بها مكابد الملاحقة. فوصف الكاتب لهذه الأمكنة بما فيها الأبنية والأبراج والسلالم كلها دلالة على السكون والهدوء بعد المراقبة التي جرّبها البطل في مكانه السابق سوريا.

وفيما يتعلق بالصورة الثانية لزمكانية بيروت، يتحدث الراويّ عن حضور فياض في بيروت وشعوره بالغربة: «سبق له أن زار لبنان، وزار بلدانا أبعد، لكنّه لم يحسّ بالغربة بهذا الشكل...» (مينة، ١٩٧٧: ١٦). فتفيض هذه الجملة بدلالة الاغتراب والحزن النفسي الذي حدث للبطل عندما كان متشردا في بيروت. ومن جهة أخرى تشير إلى أن الزمن يسير في رتابة واضحة تعكس ما يشعر البطل من رتابة وجمود زماني.

وكذلك نرى أن الاغتراب الزماني والمكاني يسبّب أن يطلق البطل على المكان والزمان الصفات السلبية. مثلا يرى الدنيا مكانا ضيقا ويقول حاقدا: «الدنيا واسعة فلماذا تضيق في وجوه أمثالي؟» (مينة، ١٩٧٧: ٥٤). أو عندما يشعر بالخيبة في المطعم والفساد الشائع هناك يقول: «أما اللوحات المثبتة على الأبواب فهي لا تشير إلى كل صنوف العمل، وليس من أحد يهتم بلوحات الأبواب بل بما يجري وراء الأبواب» (مينة، ١٩٧٧: ٧٨). وفي مقطع آخر يعضب فياض ويشكو على جميع الأمكنة ويقول: «الغش في كل مكان... مطعم الجبل ليس وحده، مطعم الجبل ليس وحده» (مينة، ١٩٧٧: ٨٤). ومع كل الخيبة والاغتراب المكاني الذي يذوقه فياض، لا يرى حلّا أمامه إلا الاستسلام أمام الزمن. فيقول الكاتب في شأنه: «إنما عليه أن ينتظر الليل كي لا تتكرر الزفة السابقة. عليه أن ينتظر الليل وكان الليل بعيدا. وعليه أن يدور وأن ينأى عن الساحة ويأكل شيئا يتبلغ به» (مينة، ١٩٧٧: ٨٥). أو في فقرة أخرى يقول البطل: «سيّان أن يهبط الليل أو يطلع الصبح، أنت والجدران الأربعة» (مينة، ١٩٧٧: ٩٧). إذن يبدو لنا جليا إن الزمن الكرونوتوبي هنا هو زمن المغامرة، إذ يعرض الزمن سلطته على المكان ويجبر البطل على أن يبحث عن زمكان جديد لنفسه.

ففي مجمل القول؛ تحمل هذه الأوصاف لمدينة بيروت دلالة التقابل الزمكاني التي تقابل بين إيجابية الصفاء حينا، وسلبية الواقع الموحش حينًا آخر، وهذا التقابل سيظلّ السمة المميزة لجميع الكرونوتوبات لهذا الفضاء الروائي.

www.SID.ir

Archive of SID

كرونوتوب الأمكنة الثانوية (الهامشية):

نقصد هنا من الأمكنة الثانوية أو الهامشية، الأمكنة التي تخدم المكان المركزي للرواية. تعتبر البيوت والشوارع والمعامل والمطاعم أمكنة هامشية أو ثانوية في هذه الرواية. إن البيت يعتبر مكانا يلجأ إليه الإنسان للإستقرار فهو بمثابة «الوجود الحقيقي للإنسانية الخالصة التي تدافع عن نفسها دون أن تهاجَم. هذا البيت هو المقاومة والفضيلة الإنسانية» (باشلار، ١٩٨٤: ٦٦). مرّ سابقا بأن بطل الرواية اختفى في البيتين هما: «بيت خليل»، و«بيت جوزيف»، وبعض الأمكنة الأخرى مثل: «المطعم»، و«معمل المسامير».

تتحلّى أوصاف البيتين (بيت خليل وجوزيف) بزمكانهما الخاص، وتؤكد كلّها على سطوة الزمن وامتداده إلى كلّ ما يؤثث المكانين. فإذا تكون البيوت «جسد وروح»، فإنّ الحياة التي كانت تدبّ في البيتين قد تحوّلت إلى الواقع الموحش في الزمن الحاضر لبطل الرواية، فلذلك أصبح البيتان أقرب شبها بالسجون له.

كان بيت خليل الملجأ الأول الذي اختبأ فياض فيه بداية وصوله إلى بيروت. إن نتعمق في الأوصاف الأولية لبيت خليل نجد مستوى خطورة وضع البطل الذي هرب من سوريا إلى بيروت طالبا الاسترخاء ومتابعة الأعمال الكتابية: «لم يكن أحد في البيت والنافذة الوحيدة كانت مغلقة مسدلة الستار وكذلك الباب، وليس من حركة في الغرفة المجاورة... بعد قليل ازدادت العتمة في الغرفة... سيّان لديه الوقت.. ليس من عمل ينتظره...» (مينة، ١٩٧٧: ١٣-١٤)، هذه الأوصاف الفيزيقية التي سردها الكاتب حول بيت خليل تؤكد على أن بيت خليل لا يكون إلا سجنا لفياض. يشعر فياض بعد مضي عدة أيام من البقاء في هذا البيت، بأنه يكون متطفلا على موائد الآخرين ويكثر فيه الشعور بالخيبة والانكسار: «كان يتألم بصمت وعجز وشعور بالخيبة، يذكر إخوانه الذين في السجن والذين يعملون في الخفاء» (مينة، ١٩٧٧: ٣٦). ثم يذكر الكاتب ندم فياض عبر الاستراجاع الزمني ويقول: «يغضب لخروجه من وطنه ونزوله ضيفا على العائلة الفقيرة وتمرّ الأيام دون خبر جديد ولا أمل جديد» (مينة، ١٩٧٧: ٣٦). ويقرر الخروج من هذا البيت نهائيا: «أنا لا أستطيع البقاء حبيسا كسيحا أكثر مما فعلتُ عليّ أن أعمل... الغربة أقسى من السجن وأقسى منهما البقاء في بيت مكشوف كهذا. لا يستطيع فيه حتى الذهاب إلى المرحاض نهارا ولا يستطيع أن يكتب...» (مينة، ١٩٧٧: ٣٨-٣٩). من خلال إمعان النظر في المقاطع السابقة يظهر أن الزمن الكرونوتوبي هو

www.SID.ir

Archive of SID

المغامرة، إذ يقضي فياض أوقاته في بيت خليل بأسباب الملاحقة والمطاردة فمن الطبيعي أن ابتعاده عن الوطن وحياته القاسية في المكان الراهن يجعله انسانا متحيرا بين الماضي والحاضر وأحيانا المستقبل. ويختفي عنصر الحركة ضمن حالة الاضطراب بين الفترتين الزمنيتين. والأسباب المهمة لهذه الحالة المضطربة لدى البطل يرجع أوّلا إلى حضوره الإجباري في مكان مغلق أي بيت خليل، وثانيا إلى أفكاره السلبية حول نفس المكان. فالبيت أصبح أكثر تماشيا مع طبيعة الزمن الماضي.

ثم اشتغل فياض في "المطعم" محاولاً تقليل شعوره بالغربة والانكسار؛ ولكن الأمر لم يحدث هكذا بل ارتفع قلق فيّاض وخوفه هناك، ولم يجد في ذلك المكان راحة لنفسه فأصبح مدهوشا ناقما ينطوي في ذاته على شعور بالسخط والخيبة أمام الفساد الداب الذي كان يراه في المطعم: «منظر المقامر والفتاة، وصاحب المطعم المجاور، وكل المشاهد الممثالة جعلته يشعر بالقرف والغضب. ازداد اقتناعا أن الفساد الذي يعبر عن نفسه بهذه الظاهرات غدا عميق الجذور حتى صار هو الطبيعة...» (مينة، ١٩٧٧: ٧٧). فيقول: «لابدّ أن أجد مخرجا.. كانت بيروت واسعة» (مينة، ١٩٧٧: ٨٠) . فوَصفُ السارد حول المطعم يدلّ عى هيمنة الواقع السلبي الزمكاني، إذ أحدثت علاقة الزمن الراهن بالمكان هنا نوعا من العلاقة التشويهية؛ عندما امتدّت يد الزمن الحاضر لتضيف على تشويه المطعم في نظرة فياض.

أما "بيت جوزيف" فهو المكان الآخر الذي التجأ البطل إليه للاختفاء. إن الأوصاف الخارجية لهذا البيت تفيد بسعة البيت ومظاهرها الخلابة التي يروق البطل المطارد: «كان الصالون واسعا، جيد الأثاث، وعلى الجدران صورة أو صورتان فوتوغرافيتان مكبرتان، وله باب جانبي على شكل قوس من الأعلى، تليه غرفة صغيرة للطعام والشراب، يحسب الداخل إليها أنه يلج كهفا في أحد المشارب الحديثة. وفي نهاية الصالون نافذة واسعة جدا، بعرض الجدار كلّه عليها ستارة مخملية» (مينة، ١٩٧٧: ١٣٨). هذه الأوصاف وحالات فياض النفسية تشير إلى أنّ "بيت جوزيف" في بداية الأمر لا يعدّ مكانا معاديا له بل يكون مكانا مرتاحا يقلّل من همومه في الزمكان الماضي. ولكن أوصاف هذا البيت لم تبق جميلة إلى هذا الحدّ بل تغيّرت إثرَ توتّر مشاعر فياض، إذ يقول الكاتب عن فياض المختفى في بيت جوزيف: « الجدران هناك عارية لكنّها متماسكة والعائلة تعيش على الكفاف ومن كفافها كان يأكل، أما هنا فالمظاهر تحجب الحقيقة، والجدران المزخرفة قد تتعري في أية لحظة، والحجز بالمرصاد إذ تأخرت الأقساط، والديون، وكلّ شيء زائف برغم الجوهر الطيب» (مينة، ١٩٧٧:

www.SID.ir

Archive of SID

١٨٦). إذن يبدو من النص أن الزمن الكرونوتوبي هو من نوع المغامرة، فيثير الزمن الحاضر البطل أن يشعر بالخيبة والانقباض في مكانه الحاضر ويبحث عن مكان جديد.

أمّا "معمل المسامير" فهو المكان الآخر الذي كان يعمل فيه بطل الرواية ليلاً ونهارا وسكن فيه للخلاص من الملاحقة. يعدّ هذا المكان في نظرة السارد مكاناً قذرا غير نظيف يفوح منه رائحة نتنة: «في معمل المسامير حيث لا فارس ولا سيف، كانت البرودة ترشح من الجدران الرطبة وتبعث الشمس المحجوبة بالغيوم، وجهامة الحديد الصدئ، والعتمة الدبقة، الانقباض الشديد في النفس. يتدلي العنكبوت من الزوايا ويتمدد شباكا للذباب فوق موجودات المكان» (مينة، ١٩٧٧: ٢٥٩) . فتظهر زمكانية معمل المسامير عبر العلاقة التشويهية التي يضيف عليها الزمن الحاضر نوعا من الكراهية والإحساس بقذارة المكان أي المعمل عند البطل.

إذن يتضح جليّا أنّ الزمكان يحمل إمّا العلاقة التحبيبية والتزينية أو العلاقة التشويهية والتحويلية. إن العلاقة التحبيبية والتزينية برزت عندما أضاف الزمن الحاضر على معمارية بيت جوزيف معالمَ الجمال وأدوات الراحة للبطل. والعلاقة التشويهية والتحويلية، ظهرت عندما ضاعف مرور الزمن نوعا من الكراهية عند البطل وتحوّل المكان عنده، فازداد إحساسه بالضيق والاغتراب.

كرونوتوب العنوان والمقدمة:

إن العنوان حسب ما جاء به "ج. جنييت" عن "شارل كريفل" و"ليوهوك"، هو ما يحقق هوية النص. ذلك أن الهوية تعطي له من بين هويات متعددة لنصوص متباينة ومتفاوتة، بالرغم من مشاركتها إياه قاسم الأدبية. إضافة لهذا فالعنوان يقيم الصلة بالمضمون وذلك لكونه يجلو عنه ويبين فحواه، وهو في العمق ما يعطي للنص قيمة من بين نصوص تنازعه الوجود (نورالدين، ١٩٩٤: ٧٠). تظهر أهمية العنوان انطلاقا من اعتباره «الآلية التي من خلالها يكتسب الخطاب هويته وكينونته وتمايزه واختلافه؛ ونقصد بذلك إنتاج العنوان تلك العلامة أو العلامات السيميوطيقية التي تطلّ على النص وتهبه مشروعية الوجود والحضور في العالم» (حسين، ٢٠٠٧: ٣٤). انطلاقا من هذا فنحاول الكشف عن الإحداثيات الكرونوتوبية التي يتضمنها النص الروائي عبر دراسة عنوان "الثلج ياتي من النافذة".

يحمل عنوان «الثلج يأتي من النافذة» تركيبا دلاليا زمكانيا في طيات كلمتي "الثلج" و"النافذة" اللتين تعتبران أساسا لعنوان الرواية، فالثلج هو رمزٌ للتطهير حيث يرى في الثلج

www.SID.ir

Archive of SID

منبعا وأصلا للحياة، وإنه تبشير لزمن الربيع خاصة والحياة عامة. الثلج مثل الماء لا يخرج دلالاته عن معنى الطهارة وكينونة الحياة والوجود. فإنّ استحضار الثلج مرتبط بالرغبة في العودة إلى الأصول الأولى، وإنّه إحالة على البدايات المؤسسة للكون وانبثاقه من غمر لا حدود له، وإشارة إلى التطهير بأبعاده الحقيقية والرمزية (بنكراد، ٢٠٠٨: ٢٤٤). ولربّما استخدم الراوئي هذه الكلمة ليحيل القاريء إلى البداية الأولى والفطرة الأولى أي الأعوام التي لم يدنس بعد، وإنه رمز للتدفق، والحياة، والاستمرارية والخلاص من المأزق والضيق والاغتراب الذي أصيب بها بطل الرواية. ومن جهة أخرى تحمل كلمة "الثلج" بما فيها من سمات البرودة دلالات سلبية أخرى مثل الحزن والحنين والاغتراب، إذ هرب بطل الراوية من سوريا إلى لبنان وتشرّد في شوارعها وجبالها، فيشعر بالحزن والاغتراب الذاتي. فيمكن أن نستدلّ بأن هذه الدلالة تكون أقرب إلى مضمون الرواية، ولعلّ إتيان هذه الكلمة في أول الجملة تدلّ على أهميتها وإثبات الدلالة. ويلائم الثلج مع الزمن الحاضر الذي يجهد البطلُ نفسه للهرب منه ولكنّه لم ينجح وما إن أراد الهرب منه دخل في مأزق آخر. لذلك يشير الثلج إلى الزمن الحاضر غير النقي للبطل الروائي.

أما كلمة "النافذة" فهي معادل حقيقي لدلالة العلاقة الحقيقية بين الحاضر والمستقبل، إذ تحمل دلالة أيجابية وهي فتح الذهن على الفضاء الجديد، ودلالات سلبية نحو الحاجز والسجن والاخفاء. فهذه الدلالات السلبية تكون أكثر ملائمة مع مضمون الرواية أي الاغتراب الذاتي عند بطل الراوية وتشرّده في لبنان في الزمن الحاضر وما يعتريه في المستقبل. فتتحقق الدلالة المكانية لهاتين الكلمتين "الثلج" و"النافذة" عبر كلا العنصرين وتواجدهما في الحيّز المكاني. أما دلالة العنوان الزمنية والتي تتحقق عبر كلمتي "الثلج والنافذة"، فيؤسسها فعل "يأتي" والذي تجسد عبر صيغة المضارع. فالعنوان يحيل على فعل محكوم بالزمن وهو الاتيان والذي يقضي تسلسل الحدثين أو الفعلين وهما نزول الثلج أوّلاً ودخوله من النافذة ثانيا.

ومما أسلف، يتضح جلياُ أنّ استيعاب العنوان يتحقق خلال القيمتين الكرونوتوبيتين هما: "كرونوتوب الثلج" بقيم الحاضر الملوّث رغم دلالته الإيجابية أي النقاء، و"كرونوتوب النافذة" بقيم الحاضر الملوّث رغم دلالته الايجابية أي الفتح. بمعنى آخر: إنّ الدلالتَين المتقابلتَين للثلج (التطهير-الغربة) والنافذة (الفتح-السجن)، تلائمان مع الزمن الحاضر الملوث. فيكمن كرونوتوب العنوان في الدلالة المتقابلة الموجودة في الثلج والنافذة، وذلك عبر مشاعر بطل الراوية المغترب.

www.SID.ir

Archive of SID

أما مقدمة الرواية فتبدأ بمدخل حواري حدث في مكان مشخص أي بيروت، يعطي النص شكل مقطع مأخوذ من مجرى الحياة ويولّد الانطباع بأنّ المشهد يتعلق بفضاء خارج النص ينتمي إلى الواقع في حركة مستمرة للزمن الذي يمضي ويرغم الراوي على أن يلتقطه في طريقه (فوتيية، ٢٠٠٧: ٥٧-٥٨).

تبدأ مقدمة رواية "الثلج يأتي من النافذة" بهذا المقطع الحواري: «حين رأته مقبلاً صاحت: ألم يوقفوك بعد؟ فقال في نفسه: يا لك من حمقاء واكتفى بتحيتها من بعيد مشيحا عنها بوجهه متجاهلا سؤالها الأهوج....» (مينة، ١٩٧٧: ٧). يُظهر هذا المقطع بأن الحوار حدث في مكان تطلّه حديقة صغيرة، وفي زمن تكوّن من الماضي الملوث والحاضر المخوف؛ الماضي الملوث الذي قد أمضاه البطل منذ سنوات في سوريا، والحاضر المخوف الذي لجأ إلى بيت خليل في بيروت. والجدير بالذكر أنّ الحوار بين الشخصيات في هذا المقطع يظهر للقاريء زمكانيةَ المقدمة. وهذا ما نرى في أسئلة يوجّهها خليل نحو فياض بطل الرواية: «هل أنت جريح؟ أين كنتَ؟ ماذا حدث؟ هل أحضر الطبيب؟...». تفيد هذه الجملة بأنّ المكان الماضي كان معاديا للبطل "فياض" كما كان الزمن الماضي ملوّثا له، فاضطر أن يلتجاء إلى زمكان جديد وهو بيت خليل. إذن توحي هذه المقدمة الحوارية للرواية إلى الزمن والمكان اللذّين عاش فيهما بطل الرواية عيشا ملوّثا.

كرونوتوب الشخصيات المثقفة:

إن الشخصية هذا العالم المعقد الشديد التركيب المتباين التنوع ـ كما اعتبرها عبدالملك المرتاض ـ تختلف بتعدّد الأهواء والمذاهب الإيديولوجية والثقافات والحضارات والهواجس والطبائع البشرية التي ليست لنوعها ولا لاختلافها من حدود. وتعتبر كلّها بمثابة مرآة تعكس كلّ طبائع الناس الذين يشكلون المجتمع الذي يكتب له وعنه، بما كان فيهم من عيوب، وبما كان فيهم من عواطف، وبما كان في قلوبهم من أحقاد، وبما كانوا يكابدونه من آلام وأهوال في حياتهم اليومية (مرتاض، ١٩٩٨: ٧٣).

بما أن الكرونوتوب لن يحدد ملامحه بعمق إلا من خلال إلتحامه بعنصر سردي آخر، ونقصد به عنصر الشخصية الروائية، وبذلك تغدو العلاقة بين كلّ من الزمن والمكان والشخصية علاقة جدلية تلازمية «فلا زمن بدون فضاء، ولا فضاء بدون زمن، ولا وجود للإثنين معا بدون شخصية ذات حركة» (ولعة، ٢٠٠١: ٦). وبهذا المعنى لا يبقى المكان مجرد

www.SID.ir

Archive of SID

مجموعة من الخصائص الفيزيقية أو الطبيعية المميزة كالمساحة والتضاريس والمناخ، فلابدّ من وجود الإطار الخاص بالعلاقة والمعنى والانتماء، وهو الإطار الذي يخلعه الشخص على المكان فينسبه إلى نفسه، وينسب نفسه إليه (عبد الحميد، ١٩٩٥: ٢٥٠).

إنّ الشخصيات المثقفة التي يطلق عليها الروائيون ضمير الأمة، تأتي أهميتها داخل الرواية من كونه يمثل أداة للتقويم، والشعلة التي تنير دروب الجماعة. ولكن هذا الضمير أي المثقف غالبا ما يصطدم بكتل إسمنتية وجدران عازلة وهو يسعى صوب إيقاظ الأمة (المجتمع) من غفوتها، وقد يكسّره هذا المجتمع، ويزدريه وهو يحاول أن يقوّم اعوجاجه أو يمنعه من ضلاله (محمد موسى حمودة، ٢٠٠٦: ١٣٧). يتسم معظم الشخصيات في روايات حنا مينة بميزات الشخصيات المثقفة، خاصة الروايات التي تناولت مرحلة الانتداب ومرحلة ما بعد الاستقلال (كاسوحة، ١٩٩١: ١٣). تتكوّن رواية "الثلج يأتي من النافذة" من ثلاثة شخصيات مثقفة. الأولى: "فياض" الذي تميز بالهرب واللجوء من القوة الظالمة والمثابرة في إثبات الذات. والثانية: "خليل غزالة" الذي تميز بالصمود والتصدي والمواجهة. والثالثة: "جوزيف بوعبدة" المتميز بحبّ الثقافة والولاء للمثقفين. فمن هذا المنطلق، نحن في هذه الدراسة ندرس العلاقة القائمة بين الزمكانية وهذه الشخصيات كشفا عن ميزاتها وتميزها عن الآخر في مواجهة الزمن والمكان.

فياض (بطل الرواية)

يلعب "فياض" بصفته بطل الرواية دور المثّقف البرجوازي الصغير الذي لاحقته الرجعية الحاكمة في سورية لأفكاره اليسارية، فاضطر إلى الانقطاع عن التدريس واختباء فترة، فلما اشتدت الملاحقة نُصح بمغادرة البلاد لمواصلة المعركة، قرّر ترك الوطن وقد التجأ إلى لبنان وفي ظنه إنه سيستمتع بالحرية (مينة، ١٩٧٧: ٢٣). فقد وقع في بيروت أسيرَ التردد بين أن يبقى مصرّا على موقفه ومبادئه، متحملاً في سبيل ذلك شتى أنواع الحرمان والعذاب، وبين أن يترك النضال، وينعم بالدفء والراحة، ولكنه يبقى في بيروت متشردا ومتطاردا في سبيل تحقيق آماله (مينة، ١٩٧٧: ١٩٤).

أما الموضوع المهم الذي يفرض وجوده هنا فهو أنّ "فياض" يعيش في ظلّ زمن ومكان يؤطرانه فيبدو خاضعا لهيمنتهما، متماثل وتغيراتهما. إنه يتأثّر بتحولات الزمن والمكان، فإذا كان الزمن قد تحول من النقاء إلى التلوّث، والمكان تحول من الكمال إلى التشوه والتداعي، فيتغير مجرى حياته نتيجة حركة البنية الزمكانية. وتتجذّر هذه الحركة نتيجة جملة من المشاكل والرقابات التي عاشها فياض في سوريا. يبدو من القرائن في الرواية إنه كان كاتبا

www.SID.ir

Archive of SID

فذّا في وطنه ولكنه لما رأى الرقابات العديدة للكتابة فضّل أن يترك وطنه ويلجأ إلى بيروت. كان متفائلا بالأحوال في بداية دخوله إلى بيروت، ولكن بعد مضي الأيام رأى أن الحياة في بيروت أضيق من سوريا من أجل ثقل الفرار والتعقيب.

كان فياض يعيش في الزمن والمكان الراهن موائما الصمت والغربة، ولم يتمكن من إظهار هذه الحالات النفسية إلا من خلال إفضاءات وهمسات ذاتية (المونولوج) أو عن طريق الحوار مع أصدقائه "خليل" و"جوزيف". عندما يضيق به الحياة في بيت "خليل" يقول وهو يتظاهر بالموافقة: «سأبقى بين هذه الجدران، أدور فيها كحيوان في قفص.. لماذا خلقت حساسا إلى هذا الحد؟ يا نعمة البلادة اهبطي علي، ويا صبر خليل، يا صبرَ معلمي الذي فتح عليّ الحقيقة والشقاء...» (مينة، ١٩٧٧: ٤٠). كما نراه يخاطب نفسه ويشكو من المكان الماضي أي سورية والزمن الحاضر: «إنّني أكتب لأجل الذين هناك... الذين يذوون، يذوبون، ويقولون لي: أنت تكتب بحماسة. أجل بحماسة، أريدها كلمات من نار، تكوي، تحرق، ومع ذلك فهي لا تكوي ولا تحرق، ولا تؤدي إلى نتيجة» (مينة، ١٩٧٧: ٩١). فتدلّ هذه الحوارات على أن فياض يشك في فائدة مساعيه لمواطنيه. وفي مقطع آخر يتحدث مع نفسه ويقول: «حسنا إرحل ولكن قل لي إلى أين؟ ستنتقل من بيت إلى بيت ومن عذاب إلى عذاب، وأخيرا؟ العين الخفية تراقبك واللقمة المرة تنتظرك والكلمة التي تقولها ستضيع كالقشة في الريح ستضيع...» (مينة، ١٩٧٧: ١٩٤). هنا زمن المغامرة يشير إلى العودة الذهنية والحركة من الزمن والمكان الحاضر إلى الوقت والمكان الجديد. وعنصر الحركة هنا في حالة الاضطراب والترديد التي يجربها البطل بين أن يذهب إلى بيت آخر أو يبقى.

إذن تغيرت رؤية فياض للأمكنة التي دخلت فيها، فمدينة بيروت أصبحت تشكّل مكانا معاديا، وهي ذلك المكان الذي يثير الإحساس بالضيق والعداء لديه، حيث يهتف في ذاته مرات عديدة ويقول: «آه لو كان لي مكان آخر.... يا دنيا! لمذا ضقت في وجهي؟» (مينة، ١٩٧٧: ٩٥). فكان من آثار هذا الزمن الحاضر المدنس، وارتماء الشخصية في أحضان المكان المعزول أن تولدت شخصية أخرى من فياض أشد تشاؤما وإحباطا تتناقض مع هويتها، حيث لا يهدّئه المكان.

وقد توحي الاسترجاعات الزمنية رغبة "فياض" في العودة إلى الزمن الماضي وانفصامه عن مكانه الظاهر، إذ يكون في الزمن الحاضر، لكنه مشدود في الماضي. كما نراه في بيت جوزيف الهادىء لكنه مشدود إلى بيت خليل: «سيان!..شعر بحنين إلى بيت أبي خليل فهتف، تراني أعود إليه؟ وفي سريرته: تراني أعود إليها؟ وابتسم للطيف الغائب وقال: جميل أن أقضي العمر

www.SID.ir

Archive of SID

مع الأطياف..» (مينة، ١٩٧٧: ١٥٨). فهذا الاسترجاع الزمني إلى الفترة السابقة خلال هذه الفقرة تعبّر عن عنصر الحركة والنقل من زمن ومكان إلى زمن ومكان آخر. واستخدام الجمل على شكل الحوار يدلّ على أن البطل قام بتذكير ما جرى من شتى الأمور في الوقت الماضي عند خليل وبإحياءه من جديد. ففي الجملة إنّ البطل الذي أراد التخلص من زمكانه السابق اضطر الالتجاء إلى زمكانيات جديدة، وبذلك فقد عاش بحسب تحول البنية الزمكانية عيشة مغتربة. وأخيرا لم يجد مخلصا من هذا المأزق إلّا الرجوع إلى زمكانه السابق أي سوريا.

خليل غزالة

"خليل غزالة" هو الشخصية المثقفة السورية التي يلعب دورا مهما في تقدّم أحداث الرواية. إنه تعلّم بعض المفاهيم الاشتراكية منذ شبابه وناضَل ضدّ فرنسا في عمل سنديكايي وذاق مرارة السجن إثر تلك المناضلة، لكنه لم يتنحّ عن المناضلة ويبدو كبطل يعزم المثابرة على النضال، على الرغم مما آلت إليه أحوال أولاده (مينة، ١٩٧٧: ٢٠ و٢٥). تختلف هذه الشخصية من حيث درجة فاعليتها وشكل الأدوار التي تتخذها فيه، فشخصية "خليل" أقل حدّة من شخصية "فياض"، فإذا كان فياض قد سخّر ثقافته وعلمه كواسطة وآلية للمناضلة السياسية وللمعارضة على الرقابات المختلفة في سوريا، فإن خليل تخلّى عن هذا الدور الحيوي قليلا واكتفى بمساعدة فياض ولو كان من المناضلين السياسيين السوريين في الأيام المنصرمة.

يعيش "خليل" في الزمكانين المختلفين: أوّلا الزمن الماضي الذي كان يعمل سنديكا واشتراكيا في سوريا أو المكان الذي كان يحيا في أحضانه ويرى فيه ذاته أمام الخطر والرقابة، فيعتبر هذا المكان مادة لذكرياته المرّة. وثانيا الزمن الحاضر الذي يعيش في بيروت بعيدا عن الأعمال السياسية أي زمن الملاحقات الحكومية والاتهامات المختلفة، وزمن القتل والموت، ولابدّ من أن يترك تأثيره على حياة "خليل"، إذ يكون جالسا في بيته ويعيش في نوع من الخوف والقلق والاغتراب الذاتي بعيدا عن الأعمال الكتابية: «كان حزينا ولكن متماسكا. يحني جذعه الأعلى قليلا، ويضمّ كتفيه تحت سترته، ويفكر بأحسن شكل لمواجهة العاصفة... البيت غارق في وجوم، وتراكض صغاره وتعلقوا به. البنت الكبرى ظلّت جالسة في الشمس، وقد نكست رأسها حين رأت خيبته...» (مينة، ١٩٧٧: ٢٦٥). إنه كان يجلس في بيته غيرَ شاغل وفقيرا جائعا، ويرجو انتهاء الظلم الغالب عليه وعلى أهله: «كان خليل منكسرا، تعبا، جائعا، يرى عدوه بشكل أجلى، إنه أمامه، غول كريه وقادر، وهو مؤمن أن

www.SID.ir

Archive of SID

هذا الغول سيسقط يوما، ولكن متى يأتي ذلك اليوم؟ متى ينتهي الظلم؟...» (مينة، ١٩٧٧: ٢٦٧). فخلاصة القول، إنّ حياة خليل مرّت عبر تقاطعين زمكانيين: الأوّل هو الزمن الماضي وما يحمل من دلالات النضال السياسي والكتابة ضمن الرقابات الحكومية، في المكان الذي كان يمثل حيزا غير أليف. والثاني هو الزمن الحاضر الذي يمكن أن نطلق عليه زمن المنع والبقاء وآلام البُعد عن الزملاء والأعمال النضالية في بيروت.

جوزيف بوعبدة

كان "جوزيف" بصفتها شخصية لبنانية- اسبانية مولعا بالأدب والأدباء، إذ كان يكتب شعرا منثورا مرة ويترجم قصيدة لناظم حكمت ويبدأ مقالة ويتركها، وكان يكتب أحيانا يوميات على طريقة جبران خليل جبران (مينة، ١٩٧٧: ١٨١-١٨٢). ولذلك ممكن اعتباره من الشخصيات المثقفة. ولعل هذه الجملة المنسوبة له تكفي للتعرف على شخصيته: "عمل النهار لأجل اللقمة وعمل الليل لأجل الفكرة". وفيما يتعلق بعلاقته ببطل الرواية، فقد كان حنونا ومشفقا لفياض وأحضر له مكانا هادئا للقراءة والكتابة (مينة، ١٩٧٧: ١٣٨-١٤٦).

إنه كان يشتغل في معمل المفروشات الخشبية والمعدنية مع الشركين اللذين كانا يتعاملان معه معاملة كلها احتقار، ولكن بعد دخول فياض في حياته قرّر أن يغير حياته وقال: «لقد عشت في غير أجوائي.. عشت بين الجرذان في قسم قطع التبديل وأعيش بين الفئران في هذا المعمل ويجب أن يتغير كل شيء. أنا أسكن مع أديب الآن.. مع أديب في بيت واحد.. ذلك ما كنت أحلم به» (مينة، ١٩٧٧: ١٤٠). يكون الزمن الكرونوتوبي هنا من نوع المغامرة والسيرة الذاتية، إذ تشير عبارة "لقد عشت في غير أجوائي" إلى أن جوزيف يروي الحوادث المرتبطة بالزمن الماضي لقارئه، كما تشير إلى حركته الذهنية إلى وقت سابق وفضاء مسبق، بحيث يريد تغيير حياته بسبب مجيء البطل.

وفي مرحلة أخرى من حياته، يشعر جوزيف بأن كتاباته لا ينفع ولذلك يقول: «إلى الجحيم، لا حاجة بعد إلى الكلمات، لدينا منها ما يكفي، العمل هو الذي يجدي». ويعترف ويتعذب ويقول: «فياض وجد طريقه.. تخلّى عن كل شيء في سبيل أن يكتب.. وخليل قاد إضرابا فاشلا ولكنه سيقود إضرابات ناجحة. أمّا أنا؟» (مينة، ١٩٧٧: ٣٠٨). تشير هذه الكلمات بأن جوزيف يكون ساخطا على نفسه والحياة. وتكون علاقة عميقة بين هذا السخط والزمكانية لأن السخط ظاهرة نفسية تتأثر من حالات الفرد في الزمن والمكان. وعنصر الحركة هنا مقتصر في حالة السخط النفسي الذي يجرّبها جوزيف بعد التأكد من عدم انتفاع أعماله الثقافية.

www.SID.ir

Archive of SID

إذن أوصاف الكاتب حول جوزيف تفيد بأنه كان محبا للثقافة والمثقفين وكان يعيش في الزمنين المختلفين: الزمن الماضي الذي كان يكتب وينظم أحيانا كما أن المكان الذي كان يحيا في أحضانه هو مكان يشعر فيه بالدفء والراحة والحماية. والزمن الحاضر الذي يكون زمن الخوف وملاحقة المثقفين. وبذلك أصبح جوزيف يعيش في نوع من حالة الخيبة بعد أن لا يرى نفعا لأعماله الثقافية.

كرونوتوب الأوصاف الروائية:

إنّ الوصف لِما يؤدّي إلى إسباغ سمة جمالية على لغة السرد فإنّه يرتبط بصفة خاصة بالزمكانية (الحاج علي، ٢٠٠٨: ١٣٩). يعلن ظهور الوصف في الخطاب الروائي عن تعطيل النسق الزمني للسرد، أو الحد من وتيرته، فيتوقّف مسار القصة مدى قد يطول، أو يقصر، ويبقى السرد في حال انتظار فراغ الوصف من الاشتغال، فهو بذلك وسيلة من وسائل التخفيف من السرعة الزمنية (بوشوشة، ١٩٩٩: ٥٧٩). فإنّ المكان يعدّ من أهم العناصر السردية التي يهتم الوصف برصد تفاصيلها؛ بحيث يرتبط الوصف ارتباطا عضويا ومباشرا بالمكان، فهو الأداة التي بواسطته يشكل وينشاء الفضاء الروائي، وأصبح يميل إلى الدقة في تقدير المسافات، مما يقربه من الهندسة (قريبع، ٢٠٠٢: ٦٥). أما الآليات والوسائل التي تسهم في خلق الأوصاف فهي «النظر، والإضاءة». والنظر بمعنى حاسة الرؤية التي نرى بواسطتها الأشياء ووظائفها التصويرية. أما الإضاءة فهي الضوء الذي يعدّ عاملا حاسما في تشكيل المناظر الروائية. (عبدالعالي، ٢١٠٢: ١٨٤؛ نقلا عن بحراوي، ١٩٩٠: ١٨٠-١٨٧).

يتمثّل عامل الرؤية في هذا المقطع من الرواية: «وكانت الساحة كقرية نمل بشري، والضجيج من حوله على أشده، والأزياء تتكاثر وتتباين...الطربوش والقبعة والملاية واللف والديكولتي» (مينة، ١٩٧٧: ٥٢). حيث يصف "فياض" ساحة بيروت وشوارعها وواجهات حوانيتها، وهو وقف في محطة الباص وينتظر أن يأتي أحدٌ ويُذهبه إلى المطعم. فيشير هذا الوصف إلى شعور فياض بالتحسّر أمام تلك الأمكنة الجميلة.

وتارة أخرى يصف فياض الأبنية العالية وينظر إلى الجمال الطبيعي لبيروت ويصفه عن طريق خياله ويقول: « تراءت له بيروت محصورة بين الرابية التي يجلس عليها وشاطئ البحر، وخيّل إليه أن أبنيتها قد تحولت إلى خيول حجرية تزحف في كل اتجاه وبدون نظام. فهي تكبر وتكبر من كل الجهات، وتتصل على امتداد الشاطئ، وتفتح ذراعيها فتحتوي البحرَ» (مينة، ١٩٧٧: ٢٠٩). وإعطاء الذراع للشواطئ فهو تشخيص يستحسنه ويجسّمه خيالُ القارئ باستماعه.

www.SID.ir

Archive of SID

وكذلك في ذلك الحين يصف الساردُ المظاهر الطبيعية لبيروت مثل الجبال، والروابي، والشواطئ: «وبدا الجبل الموشي بالدروب المضاءة يتراجع خطوة أو خطوتين، مفسحا المجال لهذ الشريط من العمران العجيب الذي يؤلف الساحل» (مينة، ١٩٧٧: ٢٠٩). فمثل هذا المثال الوصفي يشيع بدور روية فياض في تحديد معالم المكان، وبذلك يصبح للعين الراصدة الدور في نقل صفات المكان وجزئياته، لكن هذه العين تحتاج أيضا لعنصر آخر يساعدها في تحقيق غرضها، ويتمثل في عامل الإضاءة وغالبا تكون الإضاءة طبيعية يمثلها ضوء النهار وأشعة الشمس والأنوار: «وكانت الأنوار في الجبال، تتراءى كالعناقيد وتتدانى الروابي من الماء فتجاوره، وتطلّ عليه بإنحناء، حتى ليخيل إلى المرء إنّ في وسعه الجلوس على طرف الجبل وغمس قدميه بالبحر» (مينة، ١٩٧٧: ٢١٠). ويبرز ذلك أيضا عندما يصف الساردُ بيروت ومظاهر جمالها من رؤية "فياض" الذي كان يعمل في ورشة البناء ويرى ذلك المشهد من الطابق الثالث: «كانت الشمس قد أشرقت لتوها، وخصل تتدلى من النوافذ وتتساقط على الأرض والأدراج، وبيروت تستيقظ على صفير البواخر وقعقعة الرافعات ونسيم صباحي لطيف يهب من الشرق، والبحر الأزرق اللانهائي يتمطى» (مينة، ١٩٧٧: ٢٠٢).

إذن فلا غرو أن يقال بأنّ هذه الأوصاف الجميلة تسهم إلى حد كبير في ضبط وإيقاف الزمن داخل هذا النسيج السردي، ولهذا يعتبر الوصف أداة زمنية تمنح النص استراحة وسكونا؛ بحيث يرتبط الوصف ارتباطا عضويا ومباشرا بالمكان، إذ يمثل الأداة التي ترصد جزئيات المكان وتفاصيله، وهذا ما تؤدي إلى إسباغ سمة جمالية على المكان من جهة، وإيهام القارئ بواقعية هذا المكان من جهة أخرى.

النتائج

لقد حصلت الدراسة من خلال معالجة نقدية كرونوتوبية لرواية "الثلج يأتي من النافذة" إلى نتائج يأتي تلخيصها على النحو التالي:

١. يتجلى ملامح الكرونوتوب أو الزمكانية في بعض الأمكنة المركزية والهامشية في نص الرواية مثل مدينة بيروت، وبيت خليل، وبيت جوزيف، والمطعم، ومعمل المسامير، كما يظهر في عنوان الرواية ومقدّمتها، والشخصيات الروائية، والأوصاف.

٢. تغيّر المكان بعد تحول الزمن في الرواية، إذ كان الزمن الماضي زمنا لسيطرة الرقابة على الكتّاب في سوريا، والزمن الحاضر يكون زمن الهرب والرقابة في بيروت. فقد هرب

www.SID.ir

Archive of SID

بطل الرواية "فياض" من سوريا إلى مكان آخر (بيروت) وعاش هناك عيشة ضنكا ومغتربا إثر التغيرات الزمنية. لذلك إنّ الأمكنة في بيروت كلها كانت معادية وغير أليفة للبطل وتبيّنت الاغتراب الذي سيطر عليه.

٣. توجد العلاقة الوثيقة بين الزمكانية وعنوان الرواية ومقدمتها، إذ تكمن زمكانية العنوان في الدلالة المتقابلة المتواجدة في كلمتي "الثلج" و"النافذة"، وتلائم الدلالتَان المتقابلتَان للثلج (التطهير/ الغربة) وللّنافذة (الفتح/ السجن)، مع الزمن الحاضر الذي يؤثر في بطل الرواية طيلة حضوره في بيروت. وزمكانية المقدمة يتجلى في المقدمة الحوارية للرواية.

٤. توجد العلاقة المتواشجة بين الزمكانية والشخصيات المثقفة في الرواية، إذ تبين أن البطل "فياض" كان يواكب ويعايش المكان والزمنَ الحاضر في بيروت هربا من المكان والزمن الماضي في سورية؛ إنه لم ينل الرخاء الذي كان يبحث عنه في بيروت، بل أمضى حياته متواريا ومتشردا بين البيوت المختلفة (بيت خليل، بيت جوزيف، المطعم، معمل المسامير) كأنه مسجونٌ. لذلك لقد أثّر الزمن والمكان الماضي في فياض وأوقعاه في الزمن الحاضر المدنس المشوبة بالخوف والغربة. وكان "خليل" المناضل السياسي، هو المثقّف الآخر الذي جرّب تجارب فياض في سوريا وبيروت فرارا من الرقابات السياسية بسوريا. لقد مرّ له الزمن الماضي الذي كان يشتغل بالأعمال السياسية والكتابية في المكان الذي كان يمثل له مكانا غير أليف (سوريا)، وثمّ يمرّ له الزمن الحاضر الذي يضطر أن يعيش مع المنع والرقابة أكثر من الماضي في مكان غير أليف آخر (بيروت).

٥. إن الأوصاف الجميلة الواردة في رواية "الثلج يأتي من النافذة" يرتبط أغلبها بالأمكنة وتدلّ دلالة واضحة على أن بطل الرواية كان يرغب في إيقاف الزمن عبر توصيف تفاصيل الأمكنة، وذلك من أجل تقليل تحسّراته وشعوره بالغربة في بيروت.

www.SID.ir

Archive of SID

المصادر والمراجع

١. الأحمر، فيصل (لا تا). *المكان ودلالته في الرواية العربية الجزائرية*. مذكرة ماجستير (مخطوط)، قسنطينة: جامعة منتوري.

٢. باختين، ميخائيل (١٩٩٠م). *أشكال الزمان والمكان في الرواية*. ترجمة يوسف الحلاق، دمشق: منشورات وزارة الثقافة.

٣. باشلار، غاستون (١٩٨٤م). *جماليات المكان*. ترجمة: غالب هلسا، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

٤. بحراوي، حسن (١٩٩٠م). *بنية الشكل الروائي: الفضاء، الزمن، الشخصية*. بيروت: الدار البيضاء.

٥. برنس، جيرالد (٢٠٠٣م). *المصطلح السردي*. ترجمة: عابد خزاندار، الرباط: المجلس الأعلى للثقافة.

٦. بنكراد، سعيد (٢٠٠٨م). *السرد وتجربة المعنى*. بيروت: الدار البيضاء.

٧. بوشوشة، بن جمعة (١٩٩٩م). *اتجاهات الرواية في المغرب العربي*. المغرب: المغاربية للطباعة والنشر.

٨. الحاج علي، هيثم (٢٠٠٨م). *الزمن النوعي وإشكاليات النوع السردي*. بيروت: الانتشار العربي.

٩. حاجي قاسمي، فرزانه؛ وصاعدي، أحمد رضا (١٣٩٦ش). «دراسة الكرونوتوب التحليلية من منظار ميخائيل باختين في رواية دو دنيا وذاكرة الجسد». *مجلة بحوث في الأدب المقارن (فصلية علمية محكمة)*، العدد ٢٨، صص٨١-١٠١.

١٠. حسين، خالد حسين (٢٠٠٧م). *في نظرية العنوان، مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية*. دمشق: التكوين للنشر.

١١. حليفي، شعيب (١٩٩٧م). *شعرية الرواية الفانتستيكية*. الرباط: المجلس الأعلى للثقافة.

١٢. حمودة، حنان محمد موسى (٢٠٠٦م). *الزمكانية وبنية الشعر المعاصر: أحمد عبدالمعطي حجازي نموذجا*. إربد: عالم الكتب الحديث.

١٣. كاسوحة، مراد (١٩٩١م). الرؤية الإيديولوجية والموروث الديني في أدب حنا مينة. سورية: دار الذاكرة.

١٤. عبد الحميد، شاكر (١٩٩٥م). «الوعي بالمكان ودلالاته في قصص محمد العمري». *مجلة فصول*، القاهرة، مجلد ١٣، عدد ٤.

www.SID.ir

Archive of SID

١٥. عبد العالي، قمرة (٢٠١٢م). *البنية الزمكانية في رواية الرّماد الذي غسل الماء لعز الدين جلاوجي*، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، الجزائر، جامعة الحاج لخضر، باتنة.

١٦. الماضي، شكري (١٩٨٩م). «الدلالة الاجتماعية للشكل الروائي في روايات حنا مينة». *مجلة الفصول*، المجلد ٨، العدد ٣-٤.

١٧. مرتاض، عبد الملك (١٩٩٨م). *في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد*. الكويت: عالم المعرفة.

١٨. ـــــــــــــــ (١٩٩٥م). *تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

١٩. موسى، خليل (٢٠٠٦م). *ملامح الرواية العربية في سورية*. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

٢٠. مينة، حنا (١٩٧٧م). *الثلج يأتي من النافذة*. ط٢، بيروت: دار الآداب.

٢١. نورالدين، صدوق (١٩٩٤م). *البداية في النص الروائي*. اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع.

٢٢. قريبع، رشيد. (٢٠٠٢م). *الرواية الجديدة بين الأدبين الفرنسي والمغاربي*. دراسة مقارنة، أطروحة الدكتوراه، قسنطينة، جامعة منتورة.

٢٣. ولعة، صالح (٢٠٠١م). *البناء والدلالة في روايات عبد الرحمن منيف*. أطروحة الدكتوراه، عنابة، جامعة باجي مختار.

www.SID.ir